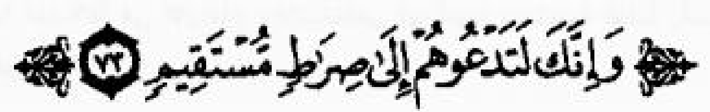
يمنُّ على خَلْقه برزق يرزقهم به ، فهو سبحانه قد استدعاهم إلى الحياة ؛ لذلك تكفَّل سبحانه بأرزاقهم ، كما لو دعوتَ صديقاً إلى طعام فإنك تُعِدُّ له ما يكفى عشرة ، فما بالك حينما يُعِدُّ لك ربك عز وجل ؟

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)﴾ [المؤمنون] وهذه أحدثتْ إشكالاً عند البعض ؛ لأن الحق سبحانه جعل لخَلْقه شراكة فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خير الرازقين ؛ لأنه يرزق الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنتَ ترزق غيرك مثلاً طعاماً فهو سبحانه أصل هذا الطعام ومصدره .

هو سبحانه خالق التربة ، وخالق الماء ، وخالق الهواء ، وخالق البذرة ، وما عليك إلا أنْ أعملتَ عقلك ، واستخدمتَ الطاقات التى منحك الله إياها ، فأخرجتَ هذا الطعام ، فلو أنك جئْتَ لأهلك بحاجيات المطبخ ولوازم المعيشة طوال الشهر من دقيق وسمن وأرز وسكر .. إلخ وقامت زوجتُك بإعداد الطعام أتقول : إن الزوجة هى التى جاءت بالطعام ؟

لذلك يقول العلماء وأهل المعرفة : نَزِّهوا ألسنتكم عن قول : فلان رازق ، ودَعُوها لقول الله تعالى ؛ لأنه سبحانه هو خالق الرزق ، وواجد أصوله ، وما أنت إلا مُنَاول للغير .

وتلحظ أنه تعالى أضاف الخَراج إلى الربوبية التى تفيد الرعاية والعناية والتربية ، فما دام الخراجُ خراجَ ربك يا محمد ، فهو خراج كثير وعطاء لا ينفد .



الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا عوجَ فيه ولا أمتاً[1] ، فكيف إذن يتأبون عليك ويقفون في طريقك وأنت تدعوهم إلى الصراط المستقيم ؟ وإن انتفع بالصراط المعوج واحد فسوف ينتفع بالصراط المستقيم الملايين .

ومن ذلك ما سبق أن أوضحناه منْ أنه يجب عليك أن تنظر إلى ما أعطاه لك التشريع قبل أنْ تنظر إلى ما أخذه منك ، فالشرع حين يأخذ منك وأنت غنى يعطيك وأنت فقير ، ويأمرك برعاية اليتيم ليرعى أولادك من بعدك إنْ تركتَهم وهم صغار .

فالشرع - إذن - يُؤمِّن حياتك ويجعلك تستقبل مقادير الله بالرضا ؛ لأنك في مجتمع إيماني لن يتخلى عنك إن افتقرت ، ولن يترك أولادك إنْ تيتَّموا ، فالمجتمع الإيماني إنْ مات فيه الأب كان الجميع لليتيم آباء . أما إنْ ضاع اليتيم في مجتمع الإيمان فإن ذلك يفتح الباب للسخط على قدر الله ، ويُغرى ضعاف الإيمان أنْ يقولوا : ما الحكمة في أن يأخذ أباهم ويتركهم عالة لا يتكفل بهم أحد ؟

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

﴿ الصِّرَاطِ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون] هو الطريق المستقيم الذي يُؤدِّي إلى الغاية بأقلّ مجهود ، وفي أقل وقت ويوصلك إلى أفضل غاية . والطريق يأخذ حظه من العناية والاهتمام بقدر الغاية الموصِّل إليها ،

(١) الأمت : الاختلاف في المكان ارتفاعاً وانخفاضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه] أي : لا ترى في الأرض يوم القيامة التواءً ولا انحرافاً يميناً ولا شمالاً ولا ترى فيها اختلافاً في الارتفاع والانخفاض أي أنها مستوية تماماً رأسياً وأفقياً . [القاموس القويم ١/ ٣٠] .

فالطريق من القاهرة إلى الإسكندرية غير الطريق بين القرى والنُّجوع .

ومعنى : ﴿ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : منحرفون عن الطريق ، ولهم حَظٌّ فى الاعوجاج وعدم الاستقامة ؛ لذلك يقول لك مَنْ يريد الصدق (تعال دوغرى) يعنى : من الطريق المستقيم الذى لا اعوجاجَ فيه ولا مراوغةَ .

لكن ، ما الذى جعلهم يتنكّبون الطريق المستقيم الذى يُنظِّم لهم حركة الحياة ، ويجعلها تتساند لا تتعاند ، ويعود مجهود الفرد على الباقين ؟ لماذا يحرمون أنفسهم من مزايا هذا الطريق ؟

قالوا : لأنهم مكذبون بالآخرة ، ولو لم يكونوا مكذبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله ؛ لأنهم سيئولون إلى الله أيلولةً ، تعطى المحسن جزاءه وتعطى المسيء جزاءه . فالذى أفسد هؤلاء أنهم اتبعوا أهواءهم ، وظنوا أن الدنيا هى الغاية وهى نهاية المطاف ، وغفلوا عن الآخرة ، وأنها دار النعيم الحقيقى الذى لا يفوتُك ولا تفوته .

كما قال عنها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : الحياة الحقيقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يعنى : لو حدث هذا لعادوا إلى ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

وليْتَه اكتفى عند هذا الحدِّ ، إنما يتعدّى هذا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ⑧﴾ [الزمر] يقول كما قال قارون : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ⑦⑧﴾ [القصص] يعنى : هذا بمجهودى وتعبى ، وقد كلمت فلاناً ، وفعلت كذا وكذا .

لذلك كان طبيعياً أن يقول له ربه : ما دُمْتَ قد أوتيتَهُ على علم عندك ، فاحفظه بعلم عندك قال تعالى : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. ⑧①﴾ [القصص]

فأين الآن علْمك ؟ وأيُّ علم هذا الذى لا يستطيع أن يحتفظ بما أتى به ؟ ومعلوم أن استنباط الشىء أصعب من حفْظه وصيانته .

ومعنى ﴿لَّلَجُّوا .. ⑦⑤﴾ [المؤمنون] تمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ .. ⑦⑤﴾ [المؤمنون] والطغيان : مجاوزة الحدِّ ؛ لأن الله تعالى جعل لكل شىء في الوجود حَدّاً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإن اتبعتَ هذا الحدَّ الذى رسمه الله لك استقمتَ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع ، ولو طغى الشىء أفسد حركة الحياة ، حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حيٍّ ، لو طغى يُغرق ويُدمّر بعد أنْ كان سر الحياة حال اعتداله . ومنه قوله سبحانه : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ[1] ①①﴾ [الحاقة]

ويقال لمن جاوز الحدَّ : طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فإنْ تجاوز هذه أيضاً نقول : طاغوت .

ثم تأتى نتيجة التمادى فى الطغيان ﴿يَعْمَهُونَ ⑦⑤﴾ [المؤمنون] يعنى : يتحيرون ويَعْمَوْن عن الرُّشْد والصواب ، فلا يُميّزون بين خير وشر .

---

(١) الجارية : السفينة . جرت السفينة جرياً : سارت [لسان العرب ـ مادة : جرا] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

استكان فلان لا تقال إلا لمَنْ كان مُتحركاً حركةً شريرة ، ثم هدأ وسكن ، نقول : فلان (انكنّ) أو استكان وأصلها (كوْن) فالمعنى : طلب وجوداً جديداً غير الوجود الذى كان عليه ، أو حالاً غير الحال الذى كان عليه أولاً ، فقبل أنْ يستكين ويخضع كان لا بُدَّ مُتمرِّداً على ربه .

والوجود نوعان : وجود أولى مطلق ، ووجود ثان بعد الوجود الأولى ، كما نقول مثلاً : وُلد زيد يعنى وُجد زيد وجوداً أولياً ، إنما على أىِّ هيئة وُجد ؟ جميلاً ، قبيحاً .. هذه تحتاج إلى وجود آخر ، تقول : كان زيدٌ هكذا فعل وفاعل لا يحتاج إلى إخبار آخر لأنها للوجود الأول ، لكن حين نقول : كان زيد مجتهداً ، فهذا هو الوجود الثانى وهو الاجتهاد ، وهو وجود ناتج عن الوجود الأول .

فكان الأولى هى كان التامة التى وردتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .. ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : وُجد ذو عُسْرة ،

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : نزلت فى قصة ثُمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم وخلَّى رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعِلْهِز . قيل : وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر ، فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان : أنشدك الله والرحم أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى . قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع ، فنزل قوله ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المؤمنون] أورده القرطبى فى تفسيره (٤٦٧٧/٦) والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٧٩) .

ولا تحتاج فى هذه الحالة إلى خبر .

ونقول : تمنّى فلان على الله أنْ يُوجَد له ولد ، فكان محمد ، يعنى : وُجد . أما كان الناقصة فتحتاج إلى خبر ؛ لأن (كان) فعلٌ يدل على زمان الماضى ، والفعل لا بُدَّ أنْ يدل على زمن وحدث ؛ لذلك لا بُدَّ لها من الخبر الذى يعطى الحدث تقول : كان زيد مجتهداً ، فجاء الخبر ليكمل الفعل الناقص ، فكأنك قلتَ : زيد مجتهد .

ومعنى ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ .. (٧٦) ﴾ [المؤمنون] أن خضوعهم واستكانتهم لم تكُنْ لأنفسهم ولا للناس ، إنما استكانة لله بأخْذ أوامره بمنتهى الخضوع وبمنتهى الطاعة ، لكنهم ما فعلوا وما استكانوا ، لا فى حال الرحمة وكَشْف الضر ، ولا فى حال الأخْذ والعذاب ، وكان عليهم أن يعلموا أن الله غيَّر حاله معهم ، ومقتضى ذلك أن يُغيِّروا هم أيضاً حالهم مع الله ، فيستكينوا لربهم ويخضعوا لأوامره .

﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون] الضراعة : هى الدعاء والذلّة والخضوع لمن أخذ بيدك فى شىء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام] يعنى : لجئوا إلى الله وتوجَّهوا إليه بالدعاء والاستغاثة .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) ﴾

لقد فشلتْ معهم كل المحاولات ، فما أجدَتْ معهم الرحمة واستمروا على غَلْوائهم ، وما أجدى معهم العذاب وما استكانوا بعد أن أخذهم الله به ، إذن : لم يَبْقَ لهم حجة ولا أملٌ فى النجاة ، ففتح الله

عليهم ﴿بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ .. (٧٧)﴾ [المؤمنون] يعنى : أصابتهم محنة كأنهم من وراء باب مُغلق تفاجئهم ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾ [المؤمنون] آيسون من النجاة مُتحسِّرون على ما فاتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يقول : خلقتُ عبادى من عدم ، وأمددتهم بأقوات الحياة ومقوماتها من عدم ، ثم جعلتُ لهم منهجاً ينظم حركة حياتهم ويصُون بنيتهم ، لأن صاحب الصنعة أعلم بصنعته ، وأعلم بما يصلحها ، ويعرف غايتها التى خلقها من أجلها ، فالذى صنع الثلاجة مثلاً هل صنعها أولاً ثم قال لنا : انظروا فى أىّ شىء تفيدكم هذه الآلة ؟ لا ، إنما قبل أن يصنعها حدّد مهمتها ، والغاية منها ، وكذلك خلق الله ، ولله المثل الأعلى .

والذى خلق وحدَّد الغاية أعلم بقانون الصيانة الذى يحمى صنعته من الفساد ، ويجعلها تؤدى مهمتها على أكمل وجه ، فإنْ خالفت قانون الصيانة الذى وضعه لك ربك تفسد حياتك وتتعطّل عن أداء مهمتك التى خلقت لها ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات]

لذلك أمركم إن اختلفتم فى شىء أنْ تردوه إلى الله وإلى الرسول ، كما ترد الآلة إلى صانعها العالم بطبيعتها وبمواطن الخلل فيها ، ونستنبط من هذه المسألة : إذا رأيتَ خللاً فى الكون أو فساداً

في ناحية من نواحيه ، وإذا رأيت عورة من العورات قد ظهرتْ فاعلم أنْ حُكْماً لله قد عُطِّل .

فمثلاً إنْ رأيتَ فقيراً جائعاً عارياً فإما أنه قادر على العمل لكنه قعد عن السعي وخالف قوله تعالى : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك] أو : أن القادرين العاملين حرموه حقّه الذي جعله الله له في أموالهم ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات]

لذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُجرى على عباده من المقادير ما يحفظ لهم توازن الحياة ويسدُّ حاجة المحتاجين ، كما نرى مثلاً أحد الأثرياء يترك بلده ، وينتقل إلى بلد آخر يضع فيها أمواله وثرواته ، وليس هناك سبب لهذه النقلة إلا أنها خاطر سلَّطه الله عليه ليحفظ به توزيع المال في المجتمع ، ولو حسبتها لوجدتَ أن هذا المكان زادت فيه حصيلة الزكاة عن حاجة المحتاجين ، فانتقل إلى بلد آخر قلَّت فيه الأموال عن حاجة الفقراء والمحتاجين .

وبعد ذلك لم يتركك ربك ، بل عرض لك الآيات التي تلفتك إليه ، وتُحنِّنك إلى التعرُّف عليه ، وهي إما آيات كونية عجيبة تدل على قدرة الله تعالى ، أو معجزات تثبت صدْق الأنبياء في البلاغ عن الله ؛ لأن الله تعالى لا يخاطب عباده كل واحد بمفرده ، إنما يرسل رسولاً ليُبلِّغهم ثم يُؤيِّده بالمعجزة الدالة على صدْقه في البلاغ .

فحين تنظر في آيات الكون وتستدل بها على وجود خالق قادر لكنك لا تعرف مَنْ هو هذا الخالق يأتي الرسول ليقول لك : إنه الله ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أن أحداً دَقَّ الباب ونحن جلوس بالداخل فما الذي يحدث ؟ نتفق نحن جميعاً على أن

طارقاً بالباب . لكن مَنْ هو ؟ لا أحد يعلم .

فالاتفاق هنا فى التعقُّل ، وأن هناك قوةً خلف الباب تدقّه ، لكن مَنْ هو ؟ وماذا يريد ؟ لا بُدَّ لمعرفة هذه المسائل من بلاغ عن هذه القوة ، وإياك أنْ تقول بالظن : هذا فلان وأنا أقول هذا فلان ، إنما علينا أن ننتظر البلاغ منه لنعرف مَنْ هو ، وما عليك إلا أنْ تقول : مَنْ بالباب وسوف يخبرك هو عن نفسه ، وعن سبب مجيئه ، وماذا يريد . ثم بعد ذلك تأتى الآيات التى تحمل منهج الله ، وتخبرك أنه يريد منك كذا وكذا .

الشاهد : أن هذه الآيات كلها تحتاج إلى وسائل لإدراكها ، تحتاج إلى سمع وبصر لنراها ونسمعها ، ثم تحتاج إلى عقل لنفكر فيها ونتأملها ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. (٧٨) ﴾ [المؤمنون]

السمع والبصر من الحواس التى سماها العلماء احتياطاً الحواس الخمس الظاهرة أى : أن هناك حواسَّ أخرى لم يكتشفوها ، وفعلاً اكتشفها العلم بعد ذلك كحاسة العضل التى تميز بها الثقل ، وحاسة البين التى تميز بها الغليظ من الرقيق فى الثياب مثلاً ، فهذه الأشياء لا تستطيع التعرّف عليها بالحواسِّ الخمس المعروفة .

وعُمْدة الحواس : السمع والبصر ؛ لأنه إذا جاءنى رسول يُبلِّغنى عن الله لا بُدَّ أن أسمع منه ، فإنْ كنتَ مؤمناً بإله فقد اكتفيتَ بحاسة السمع ، وإنْ كنتَ غير مؤمن تحتاج إلى بصر لتبصر به آياته الدالة على وجوده وقدرته ، وتستدل بالصَّنْعة على الصانع ، وبالخلْقة على الخالق ، وتقف على ما فى كوْن الله من الدقة والإحكام والهندسة والإبداع .

وهذه مهمة العقل بعد أن تحولت المسموعات والمرئيات إلى قضايا ومبادىء عقلية تحكم حياتك ، كما لو رأيتَ النار بعينك ثم لمستها بيدك فأحرقتك فتكوَّنت لديك قضية عقلية مُؤدّاها أن النار لها خاصية الإحراق فلا تلمسها بعد ذلك ، وهذه تراها حتى فى الطفل الصغير حينما يعجبه قرن الشطة مثلاً فيقضمه فيشعر بحرارته وألمه .

فإذا رآه بعد ذلك يقول (أوف) ، فهذه اللفظة بالنسبة للطفل قضية عقلية تكوَّنَتْ لديه نتيجة تجربة استقرتْ فى فؤاده ، وأخذها مبدأ يسير عليه فى كل حياته ، وهكذا من المحسّات ومن تجارب الحياة تتكوَّن لديك قضايا عقلية تستفيد بها فيما بعد .

إذن : من وسائل الإدراك تتكوَّن المبادىء والقضايا التى يأخذها العقل ، ويفاضل بينها حتى ينتهى إلى قضية ومبدأ يستقر فى القلب ونُسمِّيها عقيدة يعنى : شىء معقود عليه لا ينحلّ .

وحين تتأمل حديث القرآن عن الحواس تجده يُرتِّبها دائماً هذا الترتيب : السمع والبصر والفؤاد لأنها عُمْدة الحواس ، فالشمُّ مثلاً والتذوق واللمس لا نحتاج إليه إلا قليلاً ، أما السمع والبصر فعليهما تقوم مسألة الدعوة : السمع لسماع البلاغ ، والبصر لنرى آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

وقد أثبت العلم الحديث هذا الترتيب للسمع والبصر والفؤاد مما يدلُّ على أنه ترتيب من خالق عن حكمة وعلم وقدرة ، بحيث لا يأتى واحد منها قبل الآخر ، كما أثبت علماء وظائف الأعضاء صدْق هذا الترتيب ، فأوّل أداة تؤدى مهمتها فى الإنسان هى الأذن ثم العين ، وتعمل من ثلاثة إلى عشرة أيام من الولادة ، ثم من السمع والبصر

توجد القضايا التى يعمل فيها العقل .

إذن : فهذا ترتيب خَلْقى وتكوينى . كما أن السمع وهو أول حاسّة تؤدى مهمتها فى الإنسان هو أيضاً الإدراك الوحيد الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، فالأذن تسمع مثلاً حتى فى حالة النوم على خلاف العين ؛ ذلك لأن بالسمع يتم الاستدعاء ، لذلك تظل تؤدى مهمتها حتى فى حال النوم .

كما أن العين لا ترى فى الظلام ولها غطاء طبيعى ومغاليق تحجب الرؤية ، وليست الأذن كذلك ، فالصوت إذا خرج تسمعه جميع الآذان ، أما المرئىّ فقد يوجد معك فى نفس المكان ولا تراه وقد يراه غيرك ، إذن : فالمسموع واحد والمرائى متعددة ، لذلك قال سبحانه :
﴿السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون]

فليس لك خيار فى السمع ، لكن لك خيار فى الرؤية ، فالمبصرات تتعدد بتعدُّد الأبصار ، لكن السمع لا يتعدد بتعدُّد الأسماع .

لذلك من إعجازات البيان القرآنى فى قصة أهل الكهف أن الله تعالى ضرب على آذانهم فى الكهف ليناموا ولا تزعجهم الأصوات فى هذه الصحراء الدويّة ، ولو بقى لهم السمع كشأن الخَلْق جميعاً لما استقر لهم قَرَار طوال هذه الفترة الطويلة ، ولأفزعتهم الأصوات .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الكهف]

كذلك من آيات الإعجاز فى القرآن الكريم أن جميع الآيات التى ذكرتْ السمع والبصر ذكرتْه بهذا الترتيب : السمع والأبصار ، إلا فى آية واحدة فى موقف القيامة قالوا : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ..﴿١٢﴾﴾ [السجدة]

فقدَّم البصر على السمع ؛ لأن فى القيامة تفجؤهم المرائى أولاً قبل أنْ تفجأهم الأصوات ، وهذه من مظاهر الدقة فى الأداء القرآنى المعجز .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا عُذْر لك عندى فقد أعطيتُك سمعاً لتسمع البلاغ عنى من الرسول ، وأعطيتُك عَيْناً لتلتفت إلى آيات الكون ، وأعطيتُك فؤاداً تفكر به ، وتنتهى إلى حصيلة إيمانية تدلُّك على وجود الخالق عز وجل .

إذن : ما أخذتُك على غِرَّة ، ولا خدعتُك فى شىء ، إنما خلقتُك من عدم ، وأمددتُك من عُدم ، ورتبتُ لك منافذ الإدراك ترتيباً منطقياً تكوينياً ، فأىُّ عذر لك بعد ذلك .. وإياكم بعد هذا كله أنْ تشغلكم الأهواء ، وتصْرفكم عن البلاغ الذى جاءكم على لسان رسولنا .

والمتأمل فى تركيب كل من الأذن والعين يجد فيهما آيات ومعجزات للخالق ـ عز وجل ـ ما يزال العلماء لم يصلوا رغم تقدُّم العلوم إلى أسرارها وكُنْهها .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] لأن هذه نِعَم وآلاء وآيات لله ، كان ينبغى أن تشكر حَقَّ الشكر .

البعض يقول فى معنى ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشُّكْر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ؛ لأن الله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربك ـ عز وجل ـ يريد شكراً دائماً يصاحب كل نعمة ينعم بها عليك ، فساعة ترى الأعمى الذى

حُرِم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله ، تقولها هكذا بالفطرة ؛ لأنك تعيش وتتقلب فى نعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرِم منها .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تدوم لك النعمة فاعقلها بذِكْر الله المنعم قُلْ عند النعمة ، أو عند رؤية ما يعجبك فى أهل أو مال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ألاَ ترى أن الله تعالى جعل الحسد لينبهنا : إنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعمَ ؛ لأنه وحده القادر على حفْظها وصيانتها ، كما نشترى الآن آلةً ، ونتفق مع صانعها على صيانتها صيانةً دورية مقابل أجر معين .

كذلك إنْ قُلْتَ عند النعمة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فلن ترى فيها سوءً أبداً ، لأنك أيقظتَ بـ « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » قانونَ صيانتها ، وجعلتَ حفظها إلى مَنْ صنعها . ولا يُصاب الإنسان فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعِم وترك الشُّكْر عليها .

وأذكر أنه كان فى قريتنا رجل من أهل الفهم عن الله ، وكان يملك ثلث فدان يزرعه المزروعات التقليدية ، وفى أحد الأعوام زرعه قطناً ، فجاءت عليه الدودة وكادت تهلكه ، فكلَّمه والدى فى مسألة الدودة هذه فقال له : يا عم متولى لا تقلق فأنا أؤدى صيانتها يعنى : أُخرِج منها الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ ذَرَأَكُمْ .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون] بثكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها ، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء

القفر الجرداء ، ولا يرضون بها بديلاً ، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العَنَت والمشقة ، حتى إنك لتقول : لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب .

وقد رأينا مثل هؤلاء الذين صبروا على أقدار الله في بلادهم ، رأيناهم فى اليمن بعد أن أغرقها سيل العرم ، وكانت تُسمَّى « اليمن السعيد » ورأيناهم فى السعودية وفى الكويت ، وحكى لنا أهل هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبة صبرهم ، وجعل الله - سبحانه وتعالى - هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ؛ لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرِم منه المنعَّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

ذلك لأن الخالق - عز وجل - نثر خيراته فى كل أنحاء الأرض بالتساوى ، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى ، وفى يوم من الأيام كان أصحاب الزرع هم أصحاب المال وأصحاب السيادة ، ثم تغيرت هذه الصورة بظهور خَيْرات أخرى غير الزراعة ، فالخيرات - إذن - مطمورة فى أنحاء الأرض ، لكن لها أوان تظهر فيه .

إذن : فبَثُّ الخليقة ونشْرُها في أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المؤمنون] يعنى : لا تفهموا أنكم بنشركم فى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تفلتون منا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون] فعْلان لا بُدَّ أن ينشأ بعد وجود الحياة ووجود الموت ، فالخالق - عز وجل - يُوجِد الحياة أولاً ، ويوجد الموت ، ثم يجرى حدثاً منهما على ما يريده .

والحياة سبقتْ الموت فى كل الآيات ، إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] وعلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادةً تُنشئ الحركة فى كل أجهزته ، ولك أن تتأمل : ما الذى تفعله إنْ أردتَ أن تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ تحريك يدك أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة وتتحرك أعضاؤك دون أن تدرى أو تُجهد نفسك للقيام بهذه الحركات ، ودون أن تباشر أى شىء .

إذن : بمجرد إرادتك تنفعل لك الجوارح وأنت مخلوق لربك ، فإذا كان المخلوق يفعل ما يريد بلا معالجة ، فكيف نستبعد هذا فى حقِّه - سبحانه وتعالى - ونكذب أنه يقول للشىء : كُنْ فيكون ، مع أننا نفعل ما نريد بجوارحنا بمجرد الإرادة ، ودون أن نأمرها بشىء أو نقول شيئاً ، والله سبحانه وتعالى يقول للشىء : كُنْ فيكون ، وأنت تفعل دون أن تقول .

وقد قدَّم الحق سبحانه الموتَ فى هذه الآية : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ